من أخـــلاقنا !

للأستاذ على الطنطاوى

أعرف رجلاً أنعم الله عليه بسعة المال ، وفطره على صدق الود وبسط اليد ، فأباح إخوانه ماله ، يغترفون منه اغترافاً ، ويأخذون منه علاً ونهلاً ، قرضاً حسناً لا يطالبون برده ، وهدية لا يسألون المقابلة بمثلها ، وهبة لا يُرتقب منهم عوض عنها ، ولا يسمعون كلمة منّ أو تذكير بها . وفَتَح لهؤلاء (الإخوان) — وما كان أكثرهم — داره ، وأفرد لهم جناحاً فيها لا يدخله أحد من حرمه وأهله ، وأقام عليهم خادماً وظاهياً ، وانقطع فيه لاستقبالهم قادمين بالبشاشة والترحيب ، وإيناسهم مقيمين وخدمتهم ، وتوديعهم راجلين مشيعاً إياهم بالكرامة ، شاكرهم على (تفضلهم) بالزيارة ، سائلهم (التكرم) بالعودة ...

ولبث هذا الرجل على ذلك حتى أضاع ماله كله ، فباع الدار وأثاثها ، وغدا فقيراً يحتاج إلى (الورقة السورية) ، فلا يجد في كل أولئك (الإخوان) من يدفعها إليه ، لا وفاء دين ، ولا مقابل هدية ، ولا عوضاً من هبة ، ولا قرضاً حسناً إلى أيام السعة ، اللهم إلا بريا ، ولا يرضى المرابون أن يقرضوا مفلساً ...

* * *

ولعلّ الرجل أخطأ حين عمد إلى هذا (الكرم الجاهلي) فأخذ به ، وترك التأدب بأدب القرآن الذي يقول : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً) ؛ والذي جعل المبذرين إخوان الشياطين . ولعله لقي جزاءه ... فما سقت القصة للحكم عليه ، وإنما قصصتها لأنها ذكرتني بطائفة « من أخلاقنا » ، هي كالداء في جسم الأمة ، لا يجمل بالكتّاب وحملة الأقلام السكوت عنها والرضا بها ، وهم أطباؤها وأساتها ، وعندهم دواؤها

ذكرتني بما نكاد نراه كل يوم من الحوادث وما يكاد يعرف له كل قارئ شبيهاً ومثيلاً ، حين يأتيك الرجل من أصدقائك أو جيرانك متذللاً متواضعاً ، مظهراً التقى والأمانة ، يسألك أن تقرضه مالاً قد تكون أنت في حاجة إليه في يومك أو غدك ويذكرك الكرم والثواب ؛ وربما استعان عليك بمن لا يرد طلبه عندك فتعطيه ما يريد ، تضعه في كفه خالياً به ، تستحي أن تشهد عليه شاهداً ، أو تأخذ به كتاباً ، مع أن الله أمر بكتابة الدين إلى الأجل المسمى أمر ندب واستحباب ، لا أمر إيجاب وافتراض ، فيأخذه منك ويذهب شاكراً فضلك ، مثنياً عليك ثناء يخجلك ويضايقك ؛ ثم لا تراه بعد ذلك ولا تبصر له وجهاً فتفتش عنه لتسأله رد المال وقد انقضت مدة الدين ، وتجددت حاجتك إليه ، فيروغ منك ، ويتأى عنك ... فتطرق بابه ، فيقال لك هو غائب عن الدار ، فتعود إليه في الصباح فيقال هو نائم ، فترجع بعد ساعة فيقال خرج ... فتبتغي إليه الوسائل وتتشفع إليه بالأصدقاء ... فيلقاك شامخ الأنف مصعّراً خده ، يقول : (يا أخي ، أزعجتنا بهذا الدين ... ما هذا الإلحاح الغريب ؟ أتخاف أن آكله ... !) وينتهرك وأنت تداريه ... ثم إن كان (رجلاً طيباً) دفع إليك الدين ، ولكن قرشاً بعد قرش ، و (ورقة) بعد (ورقة) ، فتريق في استيفاء دينك ماء وجهك ، وتنفق فيه الثمين من وقتك ، ثم لا تنتفع منه بشيء . وإن لم يكن (صاحب ذمة) أكل الدين كله ، وصرخ فيك حيثما لقيك : (ما لك عندي شيء . اشتك للمحاكم !) ، وهو يعلم أنه لا سند في يدك ، ولا بينة لك عليه ... وهبك أخذت منه كتاباً بدينك ، أتتصبر على طول المحاكمة ومتابعتها وتأجيلها وتصويفها ، و (رسومها ومصاريفها) ... إن ضياع المال أهون من إقامة الدعوى به[1]

ومثل هؤلاء المقترضين (الأفاضل) مستعيرو الكتب ، أولئك الذين تركوا في قلبي غصصاً حلفت بعدها بموثقات الأيمان أني لا أعير أحداً كتاباً . ولم أنج مع ذلك منهم ، ولم يردّ لي

(١) ولو سألتني دليلا لنبأتك أن لأسرتنا قضية في محاكم دمشق مر عليها إلى اليوم ثلاث وثمانون سنة (فقط) ، وانقضى عليها بطنان منا ومن خصومنا ، وربما متنا نحن أبناء البطن الثالث ولم تنته المحاكمة !

إلى الآن كتاب (كشف الظنون) الذى نسيت من استعاره منى منذ إحدى عشرة سنة ...

ولهؤلاء المستعيرين نوادر شهدت منها العجب ، منها أن أستاذاً محترماً فى قومه جاءنى مرة يلتمس إعارته جزءاً من تفسير الخازن من خزانة كتبى ، ليراجع فيه مسألة ويرده إلىّ عاجلاً ، ففعلت ؛ وانتظرت أربع ... أربع سنوات — والله — ثم ذكرته به ؛ فغضب وقال : « لايش العجلة يا أستاذ ، لم أراجع المسألة بعد ... » !

والذى يذكر منهم صاحب الكتاب وينتازل فيرده إليه ، يرده مخلوع الجلد ، ممزق الأوصال . وأنكى منه المستعير المحقق المدقق الذى يرى فى الكتاب موطناً يحتاج إلى تعليق ، فيكتب التعليقة التى يفتح الله بها عليه على هامش كتابك بالحبر السينى الذى لا يمحى ولا يكشط ، ويذيلها باسمه الكريم ! !

وشر من هؤلاء جميعاً الثقيل الذى يتظرف ويتخفف ، فيرى أن من الظرف سرقة الكتب ، فإذا زارك وتركته فى المكتبة وخرجت لتأتيه بالقهوة أو الشاى أخذ كتاباً فدسه تحت إبطه ، أو وضعه فى جيبه ثم ذهب به وأنت لا تدرى ...

* * *

وربما كان هذا الدين المماطل ، وذلك الذى يأكل الدين وينكره ، والذى يستعير الكتاب ويمسكه ، ربما كانوا عند العامة من أقطاب الوقت وأولياء الله الكبار ؛ ذلك لأن الناس جهلوا حقيقة التقى وبدلوا معناه ، فكان التقى فى صدر الإسلام هو الذى يتقى المحارم والمظالم ما ظهر منها وما بطن ، ولا يدخل جوفه ولا جيبه إلا طيباً حلالاً ، ويفر من مواطن الشبهات ، ولا يطلب المال إلا لإمساك الرمق ونيل القوام . والعيش عيش القناعة والرضا ، ولا يأخذه إلا من حله . ولم يكن الرجل ليشهد للرجل بالتقوى إلا إن صحبه فى سفره ، أو عامله فى مال ؛ فصار التقى اليوم من يكثر عمته ، ويطيل لحيته ، ويوسع كمه ، ولا تفارق يده سبحته ، ولا يقف لسانه عن ذكر ؛ ومن يتوقر ويطيل المكث فى المساجد . وهذا كله حسن لا اعتراض عليه ، غير أن حسنه ينقلب قبحاً أبشع القبح إذا اتخذه صاحبه أحبولة يصطاد بها الدنيا ، كذلك الذى كان وصياً على أيتام ضعاف لا يملكون حيلة ، اغتر أبوهم بلحيته وسبحته فوصى بهم إليه ، فجرعهم كؤوس المذلة والجوع ، ونشأهم فى الأزقة نشأة اللصوص ، وأكل أموالهم وهو يقرأ كل يوم بصوته الجميل : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) ، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأذكار وحلقاتها ، ويجهر بالبكاء إذا سمع الموعظة ... وينكر أشد الإنكار على من يهمل السنن فيشرب بشماله أو يحلق لحيته ، والناس يتبركون بلثم يده .

فكيف السبيل إلى إفهام هؤلاء الناس ما هى حقيقة التقى كيلا يعظموا اللص ويجعلوه ولياً مباركاً ، ولا يغتروا بالصلاح المجانى الذى لا يكلف صاحبه مالاً بل يجمع به المال ، ويعلموا أن الله الذى وضع فى نفوس الشباب شهوة الجسد وضع فى نفوس (هؤلاء) المشايخ (لست أعنى المشايخ كلهم) شهوة المال ، وإنه لا فضل لأحدهما على صاحبه ؛ وأن الشيخ التقى هو الذى لا يقيم المال وزناً ، ولا عبرة بغضه البصر عن النساء واتباعه سبيل العفاف ؛ وأن الشاب الصالح هو الذى لا تغلبه على نفسه تلك الشهوة ولا عبرة بينه المال ...

* * *

لقد انحدرت أخلاقنا حتى صار الشاب منا حين يخوض خضم الحياة ، ويرى الاختلاف بين ما علموه من الأخلاق فى المدرسة ، وما تواضع عليه الناس فى الحياة ، يقف حائراً مدهوشاً لا يدرى ما يأخذ وما يدع ؛ فلا هو يرتضى لنفسه التفريط فى أخلاقه : صدقه وأمانته وعزة نفسه ، ولا هو يرتضى الحرمان من المتع والفوائد والمناصب العالية والمرتبات الكبيرة ينالها جزاء تمسكه بما علموه من الأخلاق . حدثنى صديق لى أنه انتسب فى شبابه إلى الشرطة ، فجعلوه رئيس مصلحة السير فى بلدة من بلاد الشام ، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سنة أو أوفى من ذلك ، وكان مقره فى (مخفر) فى ظاهر البلد ، فمر عليه رتل من السيارات فيه حجاج آيبون ، وكان نظام تلك الأيام أن سيارة لا تجتاز على مخفره إلا بوثيقة وإذن ، لا أدرى ما صفتهما فقد نسيت دقائق حديثه ، ولم يكن معهم ذلك (الإذن) فوقفهم ومنعهم من المرور إلا به . (قال) فثاب السائق هنيهة ثم عاد

وفى يده صرة وضعها على مكتبى فيها أربعون ريالاً مجيدياً ، وقال هؤلاء حجاج آيبون يريدون التعجيل بالوصول ... وهذه الصرة ثمن (فنجان قهوة) رجاء السماح لهم الخ ... فلما سمعت ذلك قفّ شعرى وصحت به : أتريد أن ترشونى يا كذا وكذا ، وأمرت به فوقف ، واستللت الهاتف (التلفون) أهتف بمدير الشرطة أرفع إليه الأمر وأنا أرى أنه سينزل به أشد الجزاء ، فإذا به يأمر بإطلاقه ، ويأذن للسيارات بأن تسافر على خلاف النظام ، وأن يبعث إليه بالمال ليجرى التحقيق . (قال صديقى) وذهب المال ولم يعد ، وتركت العمل . ولو أنى بقيت لطرحت عن عاتق ثقل الأخلاق التى تجعلنى غريباً بين زملائى ، وتحرمنى الغنى ، وتكسبنى غضب الرؤساء فلا يصيبنى ترفيع ، ولا يصل إلى خير . وليست هذه القصة فريدة فى بابها ، ولا هى نادرة من النوادر ، بل هى قصة كل يوم ، وهى الداء الذى يزداد ويسيطر والأساة عنه غافلون . وأين أساته وأهل السياسة مشغولون بالقتال على كراسى الحكم ، هى الدنيا لهم وهى الأخرى ، وأهل الأدب بين نائم يستمتع بشهى الأحلام ، ومستيقظ قد ألهاه هواه ، فهو يملأ الدنيا بكاء ونحيباً لأن صاحبته أسهرته بعد النجوم ولم تأته .. أو أنها قد وعدته بقبلة ثم وجدت أجمل منه أو أفسق فأعطته إياها . وأهل العلم يعيش أكثرهم على هامش الحياة لا هم له إلا مرتبه يقبضه من (دائرة الأوقاف) فى مطلع كل شهر ، ثم لا تراه ولا يراه أحد إلى الشهر الذى بعده ، أو (حاشية) يقرؤها ويعيدها على من حضر مجلسه ، قراءة تبرك لا قراءة تحقيق ، فلا يرجح ولا ينتقد ولا يقابل قانوناً على قاعدة فقهية ، ولا ينظر فى مشكلة من مشاكل العصر ليرى حكمها . ومن اشتغل منهم بالمسائل العامة أخذ نفسه بالاهتمام بأمر لا يقدم فى الدين ولا يؤخر ، ولا يتوقف عليه إيمان ولا كفر . والشباب الناشئون لجهلهم حقائق الإسلام ، وبعد ما بينهم وبين المشايخ ، وقصر أيديهم وأفهامهم عن نيل الكتب (ذات الشروح والحواشى) قد زهدوا فى كل ما هو شرقى واستهانوا به ، وعظموا ما يقابله من كل حماقة دعيت مذهباً اجتماعياً ، وكل سفسطة سميت فلسفة ، وكل كفر بالدين والعرض دعى أدباً ، وأعانهم على ذلك أن أكثر المدرسين من الذين لم يقدر لهم فهم علوم الإسلام والغوص على كنوز كتبه . ولست أطلق القول وأجنح إلى التعميم ، فإن فى كل فئة من هؤلاء الطيبين المصلحين ، ولكن الكثرة على نحو ما ذكرت . فمن أين يرجى إصلاح أخلاقنا وأوضاعنا ؟

ومن أين يرجى لأخلاقنا صلاح ، ولم نتفق بعد على (الأخلاق) التى ينبغى أن نتخلق بها ، فمنا من يرى المثل الأعلى فى أخلاق الجاهلية : كرم إلى حد التبذير ، وشجاعة إلى حد التهور ، كصاحبنا الذى استهلت بحديثه هذا المقال ، وعامة طائفة (الزكرت) فى الشام ، (وهى أشبه بالفتوة فى مصر) وأكثر البدو . ومنا من يميل إلى التخلق بأخلاق أجدادنا فى القرن الماضى على ما كانت عليه بلا زيادة عليها ولا نقصان منها ، ومن يخالفهم مخالفة الضد للضد فيرى أن تقتبس الأخلاق الغربية برمتها . ويتشعب بهؤلاء الرأى فيميل كل إلى الأمة التى تعلم فى مدارسها أو رحل إلى أرضها ؛ ومن يرى اقتباس الجيد النافع من كل أمة من غير أن يحدد أو يعين . ولا دواء لهذه الفوضى فى رأيى ، ولا صلاح لأخلاقنا ، إلا بالرجوع إلى الإسلام الصحيح الذى جاء به سيدنا وسيد العالم محمد صلى الله عليه وسلم ، لا الإسلام الذى يفهمه الحشويون والمتاجرون بالدين ، ولا الذى تفهمه العامة . فإذا فعلنا فثمة كل خير ، ولا يكون ذلك إلا إذا شمر العلماء وحققوا المسائل ، ودرسوا المشكلات ، وألقوا عن المصنفين الأولين رداء التقديس ، واستمدوا الأحكام من موردها ثم ترجموا هذه الكتب القديمة إلى لغة العصر ، فأين من ينتدب نفسه لذلك ؟

على الطنطاوى

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
و ٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وذلك عدا أجر البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد ..